المحاضرة الثانية

ماهية تاريخ الوقائع الاقتصادية وأهمية دراسته

(الجزء الثاني)

المحاضرة الثانية:

ماهية تاريخ الوقائع الاقتصادية وأهمية دراسته (الجزء الثاني)

- نظرة على الوقائع الاقتصادية في العصور الوسطى

استغرقت العصور الوسطى مدة عشرة قرون تقريبا تبدأ من سقوط روما على يد قبائل الجرمان سنة 476م إلى سقوط القسطنطينية سنة 1453م، وقد عرفت هذه المرحلة في تاريخ أوروبا بعصور الظلام نظرا لما غلب عليها من ركود فكري وسيطرة الكنيسة في جميع المجالات. إلا أنها لم تكن كذلك في الحضارة الإسلامية. ولهذا نميز في هذا المحور بين الوقائع الاقتصادية في العالم الغربي (أوروبا)، والوقائع الاقتصادية في العالم الاسلامي.

أولا: الوقائع الاقتصادية في العالم الغربي

من أبرز معالم العصور الوسطى في أوروبا سيطرة الكنيسة وسيادة النظام الاقطاعي اللذان كانا من أهم أسباب الركود الاقتصادي والفكري في أوروبا خلال العصر الوسيط:

سيطرة الكنيسة: لقد كان للكنيسة دورا قياديا في العصور الوسطى في أوروبا، فقد كانت من أكبر حائزي الأراضي كما سيطرت على الحياة السياسية والفكرية للمجتمع الأوروبي واحتكرت التعليم فهي المؤسسة الوحيدة المسؤولة على التعليم والمواد الدراسية وإصدار الكتب، فكان لها تأثير كبير على الحياة الفكرية في جميع المجالات العلمية والاجتماعية والاقتصادية.

النظام الاقطاعي: لقد كان النظام الاقطاعي الذي ساد في أوروبا في تلك الفترة كمحصلة للفوضى التي عمت في أعقاب سقوط الإمبراطورية الرومانية على يد قبائل الجرمان ابان القرن الخامس الميلادي.حيث عمد الامبراطور الجرماني – بعد انتصاره- إلى تنصيب قادة جيشه أمراء(حكام) على أقاليم الإمبراطورية وتوزيع جزء من حقوقه وصلاحياته عليهم. هذه الحقوق والصلاحيات أخذت شكل قاعدة في كل وحدة من الأرض هي الاقطاعية، وبذلك يدينون له بالولاء والتبعية. لقد حاول الجرمان اقامة حكومة مركزية تكون لها سيطرة كاملة على أرجاء كل أقاليم الامباطورية الجديدة (الجرمانية) ولهذا فإن النظام الاقطاعي هو نظام سياسي واجتماعي واقتصادي يقوم على أساس نظام هرمي على رأسه الامبراطور الذي يخضع له مباشرة حكام الإقطاعيات، (الأشوح، 2005، صفحة 58) إلا أن توسع الإمبراطور في منح الحكام الكثير من الصلاحيات والاختصاصات أدى تدريجيا إلى استقلالية هذه الاقطاعيات في إدارة شؤونها حيث استاثر الحكام بالأقاليم واصبحوا بذلك مركز قوى في مواجهة الامبراطور، وانتشرت الحروب والعداوات بين الاقطاعيات.

لقد كان النظام الاقطاعي زراعيا حيث كانت الزراعة هي النشاط الرئيسي في الاقطاعيات ثم أصبح حرفيا ابتداءا من القرن 12م.

خصائص النظام الاقطاعي الزراعي: لد كانت الزراعة تحتل المركز الأول بين أوجه النشاط الاقتصادي المختلفة في أوروبا في العصور الوسطى، وبالتحديد من القرن 5م إلى القرن 12م. ومن أهم الخصائص الاقتصادية التي كانت تميز هذا النظام خلال هذه المرحلة:

- اندثار الدولة والمدن: وتحول الريادة من المدينة الى الاقطاعية.

- سيطرة حكام الاقطاع (الأمراء) بدل سيطرة الحكومة الذين أصبحوا يجبون الضرائب لحسابهم الخاص، كما استخدموا كل الوسائل الممكنة من ضغط وتهديد وإرهاب للاستيلاء على أراضي الفلاحين الأحرار الذين تنازلوا عن الأرض وعن جانب من حريتهم وتحولوا إلى فلاحين أقنان وهكذا أصبحت الاقطاعية تتشكل من طبقتين رئيسيتين:

- السيد (الحاكم الاقطاعي) الذي يمتلك الأرض وما عليها من وسائل إنتاج ومن الفلاحين الأقنان؛
- الفلاحين الأقنان وهي فئة ترتبط بالسيد الاقطاعي ارتباطا الزاميا خاضعة لبعض المظاهر العبودية؛

إلى جانب هذاكانت هناك فئات أخرى مثل العبيد الذين يخدمون في قصور الحكام وصغار الحرفين..؛

- تميز النظام الإقطاعي بمستوى منخفض جداً من الفن الإنتاجي،

- كانت الأرض مقسمة إلى قسمين:

- قسم كان يخص السيد الاقطاعي ويقوم الفلاحون الأقنان بزراعته لحسابه دون أن يتقاضوا أجرا على ذلك. أي العمل وفق نظام السخرة في ذلك الجزء من الأرض المخصص للإقطاعي.
- قسم آخر كان السيد الاقطاعي يوزعه بالتساوي على الفلاحين الأقنان التابعين له لزراعته لحسابهم مقابل أن يدفعوا له ريعا، الذي كان في البداية عينيا (ريع عيني) ثم أصبح نقديا.

- لقد كان اقتصادا زراعيا راكدا لا مجال فيه للكسب ولا للخسارة

-لقد كان اقتصادا مغلقا

النظام الاقطاعي الحرفي: لقد بدأت بوادر انهيار النظام الزراعي في القرن 12 ممهدة لظهور نظام آخر هو النظام الحرفي. ومن أهم العوامل التي ساعدت على ظهور النظام الحرفي هي: ظهور النقود؛ انتعاش الحرف في المدن؛الهجرة الريفية؛ الأمن؛ تمكن ملوك فرنسا واسبانيا انجلترا من اخضاع الكنيسة والأسياد الاقطاعيين الى سيطرتهم وأدوا دورا مهما في تشكيل ما يسمى الدولة القومية ؛الحروب الصليبية ؛

خصائص النظام الحرفي:

أ- الركيزة الأساسية للنظام الحرفي في مرحلته الأولى كانت الصناع الذين يعرفون باسم أصحاب الحرف، يقيمون في المدينة خارج سلطة الإقطاع ويمتلكون وسائل الانتاج ملكية خاصة، ويزاولون الحرفة مع أفراد الأسرة كما يتولون بأنفسهم الأعمال التجارية.

ب- تشكل النقابات الحرفية: وذلك بانضمام أصحاب الحرفة الواحدة إلى تنظيم نقابي مهمته الأساسية الدفاع عن مصالح أعضائه من الحرفيين عن طريق: المحافظة على مستويات الأسعار؛ تحديد عدد الحرفيين؛منع دخول أفراد جدد؛ مراقبة جودة المنتوج؛ وضع شروط عضوية منها: لايسمح لأي شخص بالحصول على عضوية النقابة المهنية إلابعد التأكد من أن طالب العضوية يمتلك المهارة الفنية للحرفة التي ينتمي إليها، على طالب العضوية أن يدفع الرسم المقرر والذي كان مبلغا كبيرا؛

ج- التقسيم الاجتماعي: أدت كل تلك التطورات إلى تغير كبير في البنية الطبقية للمجتمع الذي أصبح يتكون من الطبقات التالية:

- الطبقة الحاكمة؛ طبقة الطوائف الحرفية؛ طبقة الاقطاعيين الزراعيين؛طبقة التجار؛ طبقة العمال المستأجرين؛

ثانيا: الوقائع الاقتصادية في العالم الإسلامي

في هذا القسم سيتم استعراض بعض الوقائع الاقتصادية المهمة في تطور التاريخ الاقتصادي الاسلامي كمراحل عامة تبرز تطوره خلال **فترة العصور الوسطى**. وقد حاول العديد من المؤرخين والباحثين تقسيم التاريخ الاقتصادي للمسلمين الى مراحل أساسية مختلفة وقد اعتمدت هذه الدراسة على التقسيم التالي:

1- مرحلة التكوين والإنشاء: وتبدأ من عهد النبوة وتنتهي بخلافة على بن أب طالب ﷺ. ومن أهم معالم هذه المرحلة:

1-1 **تنظيم الحياة الاقتصادية في المدينة:** من العلامات البارزة في الحياة الاقتصادية في عهد الرسول ﷺ:

- مؤاخاته بين المهاجرين والأنصار كنموذج للتكافل الاجتماعي ؛.الحث على العمل والكسب الحلال؛ إقرار الملكية الخاصة ودعوة المالك للحفاظ عليها؛ وتحديد اطار للملكية العامة، فهناك منافع عامة يجب أن تتاح للناس جميعا وعلى الدولة توفيرها، تنظيم السوق والتجارة على أسس الحرية والمنافسة؛

2-1 اتساع رقعة الدولة الإسلامية في عهد عمر بن الخطاب ﷺ، حيث تم فتح بلاد العراق والشام ومصر هو ما أدى إلى التوسع العمراني من خلال انشاء المدن الجديدة وبناء المساجد وفق النموذج العمراني الإسلامي إلى جانب اهتمامه ﷺ بشق الأنهار وفتح الطرق وبناء الجسور لتسهيل عملية ايصال السلع والبضائع الى المدن المختلفة في الدولة الإسلامية كما ازداد التبادل التجاري مع الاقاليم المجاورة، وتنامت الموارد المالية للدولة الاسلامية. ويمكن تحديد الملامح العامة للاقتصاد في فترة الخلفاء الراشدين في النقاط التالية:

-تغليب المصلحة العامة على المصلحة الخاصة (وتوفير مورد مالي جديد هو الخراج)؛

-تأسيس المالية العامة وإنشاء بيت المال والدواوين ؛

-الانفتاح التجاري والمعاملة بالمثل في التعامل الاقتصادي مع الدول الأخرى، حيث فرض عمر بن الخطاب ضريبة العشور على تجار تلك الدول كما كانوا هم يفرضونها على تجار المسلمين.

3-1 أوجه النشاط الاقتصادي: لقد كانت الزراعة المهنة السائدة لدى الأنصار في المدينة المنورة، أما المهاجرين فقد اهتموا بالأسواق. أي أن المهنتين السائدتين كانتا الزراعة والتجارة إلى جانب وجود بعض المهن الحرفية الضرورية كالنساج (الحياكة)، النجار، الحداد...

4-1 النقود: لما كانت النقود وسيلة ضرورية للحياة الاقتصادية والاجتماعية فقد كان المسلمون يتعاملون بالدرهم والدينار الذهبي الرومي و الدرهم الفضي الفارسي. ولكن في عهد عمر بن الخطاب ﷺ رأى أن النقود مختلفة الأوزان، وهذا من شأنه أن يضر بمصلحة المسلمين. فحدد مقدار الدرهم بـ14 قيراط (القيراط= 3.96 غرام) والدينار الذهبي بـ 4.25 غرام، وأضاف إلى العملة نقوشا إسلامية لتميزها عن النقود الزائفة.

2- مرحلة النمو والنضوج: وهي تشمل العصر الأموي والعصر العباسي الأول. اتسمت هذه المرحلة بالفتوحات الاسلامية الواسعة وبالسيطرة على أراضي زراعية كبيرة؛ وانتعاش في النشاط التجاري والصناعي:

1-2 الزراعة: بفضل الفتوحات الاسلامية تمكن المسلمون من السيطرة على أراضي زراعية كبيرة، كما حرص الأمويون على تنمية الموارد الزراعية نظرا لدورها في رفع حصيلة ايرادت الدولة، وعملوا على نقل مغروسات الشام إلى الاندلس، كما جلبوا إليها البذر المتنوعة. إلى جانب ذلك كان للمسلمين تجارب ناجحة في المحافظة على التربة وحسن استخدام السماد، وفي تخزين الحبوب، وفي تكنولوجيا السقي ونقل المياه واستخدام النواعير. أما العباسيون فقد خرص ولاة الامر منهم على زيادة الانتاج الزراعي نظرا لاتساع رقعة الاراضي التي تم فتحها

2-2 التجارة: اتسمت هذه المرحلة بتصدير البضائع والانفتاح التجاري مع الشعوب الأخرى مما ساهم في امتلاك ثروات مالية كبيرة من عائدات التصدير وهذا راجع إلى: سيطرة المسلمين على الممرات التجارية فقد استطاع المسلمون السيطرة على البحر الاحمر والبحر الابيض المتوسط والمحيط الهندي؛ قدرتهم على بناء الأساطيل البحرية مما ساعدهم على السيطرة على عمليات النقل البحري في الموانئ المختلفة والاستفادة من خبرات أهل الموانئ التي تم السيطرة عليها في تعلم الفنون الملاحية وطرائق التجارة مما مكنهم من الوصول إلى مناطق بعيدة كشرق افريقيا وغربها والصين وغيرها من

البلدان، ففي العصر الأموي نشط التبادل التجاري بين الأقاليم الاسلامية وبين البلدان المجاورة وخاصة الهند والصين حيث بنى الخليفة معاوية بن أبي سفيان 1700 سفينة شراعية مستخدما خشب جبل لبنان. أما في العصر العباسي فقد بلغ النفتاح التجاري مداه حيث جلبت البضلئع المخنلفة الى بغداد كما تزايدت صادرات الدولة الاسلامية الى البلدان المجاورة.

3-2 الصناعة: تزايد اهتمام المسلمين بها بعد تعرفهم على الصناعات الرائجة في البلاد المفتوحة وتوفر المعادن والمواد الخام اللازمة فقد فتح المسلمون العديد من المناطق الغنية بالمعادن مثل بلاد ماوراء النهرين والاندلس، والسودان الغربي حيث مناجم الذهب واهتموا بالصناعات المرتبطة بالمعادن مثل الحديد في صناعة السيوف والدروع في مصر والشام،والنحاس في صناعة الاواني او سك النوقد. كما اهتم المسلمون صناعة المواد الغذائية بفضل تطور الانتاج الزراعي مثل صناعة السكر وطحن الأرز في الشام ومصر؛ صناعة النسيج والحرير والدباغة وصناعة الزجاج والصناعات المرتبطة بالخشب وصناعة السفن في الأندلس؛ صناعة الملابس بالعراق نتيجة توفر المواد الأولية من الصوف والقطن والكتان؛ كما أخذ المسلمون بعض الصناعات المتوفرة في البلدان التي وصلوا إليها مثل صناعة الورق من الصين حيث تم إنشاء مصنع دار القز لصناعة الورق في بغداد مما ساهم في التطور الثقافي وانتعاش الحركة العلمية في الدولة الإسلامية. فأصبح العالم الاسلامي مكتبة عظيمة تضم التراث العالمي وإبداعات العصر الفريدة التي أنتجتها الحضارة الإسلامية في مختلف مجالات العلوم: علم الجبر والهندسة، الفلك، الطب والصيدلة....

4-2 الاهتمام بالنقود كوسيلة للتبادل: ولعل أهم ماحدث في هذا المجال خلال هذه المرحلة هو سك الدينار الاسلامي في عهد عبد الملك بن مروان في عام 74-75 هجري وحرصه على تعميمه في جميع أقاليم الدولة الإسلامية. ومن أهم الأسباب التي دعت الخليفة لهذا الإجراء هي: تعدد سك النقود في الأقاليم مما أضعف الثقة فيما هو متداول منها؛ الحاجة الى اظهار استقلالية الدولة الإسلامية من خلال وجود نقود خاصة بها؛ بالإضافة إلى اتساع الدولة وتوفر موارد من الفضة والذهب المستخرج من مناجم الأقطار الإسلامية التي تم فتحها؛ وكانت دمشق هي مركز ضرب وسك النقد، ثم اتسعت دائرة ضرب العملة في أنحاء متفرقة من أقاليم الدولة الإسلامية، بعد أن رخصت لهم دار الخلافة بسك النقود . وفي عهد الخلافة العباسية 212 هـ اتجهت دور الضرب نحو اللامركزية.

3- مرحلة التدهور: تشمل العصر العباسي الثاني، ودول السلاطين وعصور المماليك والسلاجقة وبداية الدولة العثمانية. اتسمت بـ:

- تفكك الدولة الإسلامية الى ثلاث دول: الخلافة العباسية في بغداد؛ دولة بني امية في الأندلس؛ ودولة الفاطميين في إفريقيا؛
- كما زادت الفتن بين المسلمين مما أفقد الدولة الإسلامية هيبتها.
- ضعفت موارد المالية للدولة الإسلامية بسب تسلط الولاة على بيت المال، وتزايد سلطة الجيش واستحواذهم على الاراضي الزراعية واستيلائهم على ايراداتها (خراجه)
- تدهور قيمة العملة الإسلامية بسبب تلاعب الولاة بعيار العملة مما ساهم في تقليل الثقة بها وظهور عملات مختلفة.
- الحروب الصليبية التي أدت إلى استنزاف ثروات المسلمين، وإلى احتلال بعض الموانئ الاسلامية وانتشار سفن البحرية الصليبية وازدهار تجارتهم على حساب التجارة الإسلامية.
- هجوم المغول على البلاد الاسلامية الذين عثوا في أرض المسلمين فسادا حيث قاموا بتخريب شبكة الري والطرق في جميع المناطق التي احتلوها.

كل هذا أبعد المسلمين عن اكتساب المعرفة وقلل اهتمامهم بالابتكارات الجديدة فضعفت القدرة الانتاجية وتراجعت معدلات التنمية الاقتصادية وبرزت المشاكل في مختلف القطاعات فقد تراجع الانتاج الزراعي بسبب المشاكل السياسية وزيادة الضرائب عليه؛ كما انخفضت انتاجية قطاع الصناعة وقلت جودة منتجاته وتراجعت تنافسيته، وقد أدى ذلك الى ضعف التبادل التجاري مع الدول الأخرى وبالأخص أوروبا مما قلل من تدفق الأموال والذهب إلى الدولة الإسلامية ووقوعها في ركود اقتصادي طويل.